الإيزيدية

المكون الغائب من النسيج السوري

عبد الناصر حسو[1]

مقدمة

عاشت الإيزيدية بوصفها حاضرًا وجوديًا في سورية ضمن تجمعات منسية صغيرة متباعد بعضها عن بعض في منطقة عفرين وقرى الحسكة والقامشلي الممتدة جغرافيًا مع إيزيدية العراق، لم تكن معروفة قبل هجوم تنظيم الدولة الاسلامية على جبل شنكال إلا في إطار ضيق، فضّلت التعايش خلال تاريخها الطويل بحذر مع المحيط المغاير دينيًا على التحدي والمواجهة، فعقدت شبكة من العلاقات الاجتماعية والإنسانية والاقتصادية مع بقية المكونات التي جاورتها على مدى تاريخها، وآمنت بأن جوهر الحياة وضروراتها الوجودية يعتمدان على التواصل مع المحيط الإنساني في تفاعله الاجتماعي، بحيث تمخضت عنه أشكال جديدة لضرورات الحياة المشتركة، ولصوغ الهواجس والأحلام، ما دفع المكونات الدينية الأخرى إلى تغيير نظرتها النمطية، وتعديل خطاباتها نحو التعايش والتسامح اللذين ينضويان في خانة تقبل الآخر، كونها تعيش ضمن صيرورة تاريخية، تتفاعل معها، وتنفعل بأحداثها، وتحوّل التفاعل والانفعال إلى ضرورة تعبيرية، توضح بها موقعها، ويظهر موقفها المتصالح مع الحكومة والمجتمع لمعنى الوجود الذي يوجد عليه من أجل إثبات التعايش والمحافظة على كينونتها، على الرغم من حالات التجاوز في العقل الجمعي العام في سورية، بسبب الغموض الذي اكتنف تعاليمها، ما دفع مخيلة الآخر إلى نسج تصورات مغلوطة عنهم، بأنهم كفار وعُباد الشيطان، يُحرّم الشرع التعامل معهم، وهي صفة آثمة لا تستند إلى الحقيقة.

على الرغم من العلاقة المتواترة بين الإيزيدية والمحيط المختلف، فلم تحدث مشاجرة أو اقتتال مسلح، إلا أن أحدًا من المدافعين عن الإيزيدية خلال السنوات الأخيرات لم يقدم منهجية علمية واضحة لإزالة الصورة النمطية الغامضة عنهم، وأسهم الإيزيديون أنفسهم في ترويج هذه الأكاذيب والتُهم، وراحوا يدافعون عنها بالسبل كلها، بسبب تجاهلهم معرفةَ حقيقة دينهم، باعتبارهم محرومين من حقوقهم التعليمية لغياب المرجعيات والمدارس الرسمية في سورية.

من الصعب الحديث عن رؤية إيزيدية واحدة في هذا البحث، انطلاقًا من أن معتنقيها مجموعة أصوات واحدة ذات مرجعية دينية موحدة غير قابلة للتفكك، لعدم تجانسهم السياسي والفكري، في هذا السياق المشكل، وفي ظل غياب المرجعية الدينية، تكاثرت المرجعيات الحزبية والمدنية والاجتماعية، وسمحت لنفسها التحدث باسمهم وفق أجنداتهم الخاصة، فتشتت صوت الإيزيديين بصيغة المفرد في معابر السياسة، ومن الطبيعي أن

(1) عبد الناصر حسو: أستاذ سابق في المعهد العالي للفنون المسرحية، أمين تحرير مجلة الحياة المسرحية سابقًا.

تختلف البوصلة السياسية التي تحدد العلاقات الاجتماعية والسلوك الإيزيدي للفرد عن المرجعية الدينية التي ترسم الحياة الدينية مع المحافظة بصيغة المجموع على مجموعة التشريعات العقائدية من الذوبان، ومن ثم فقدت الإيزيدية صوتها، وأدت إلى حال شلل غير قادر على إعادة إنتاج الواقع بوصفه مجموعة متراصة ذات فاعلية، كما حدث الاختلاف في وجهات النظر من حيث التعامل مع النظام الاستبدادي والثورة السورية بعد فظائع الفصائل الجهادية بحقها (تنظيم داعش) كونها الطرف الأضعف في الصراع السوري.

لذلك، تموقع المجتمع السوري بمكوناته كافة ضمن دائرة الأصوليتين (القومية، الدينية) لحماية نفسه من العدو الوهمي، بعد أن تعرضت المكونات الدينية جميعها لانتهاكات إنسانية على أسس دينية أو مذهبية أو طائفية من قبل الأطراف المتصارعة في المقتلة السورية، في الوقت الذي كان من المفترض أن تكون المنطقة المتقاطعة بين الأصوليتين، منطقة تعايش وتضامن وحوار مثمر، بدلًا من أن تتحول إلى منطقة تنابذ وقهر وقتل واعتقال وخطف.

قامت الثورة السورية ضد النظام الاستبدادي وأركانه لتحسين شروط الحياة الكريمة للسوريين كلهم، فلم تقم الثورة السورية لأجل إثارة فتن دينية ومذهبية، ولم يكن ثمة مؤشرات لظاهرة التطرف الديني والطائفي، بل كانت ثورة ضد نظام سياسي وآلياته العسكرية المتحكمة بمصير المجتمع، فأحدثت الثورة شرخًا عميقًا بين مكونات المجتمع، يتطلب زمنًا لتضميده، وما زلنا نعمم نعوتًا على المستويين الرسمي والشعبي العام على هذه المكونات الدينية، ونتجاهل مفهوم المواطنة.

الإيزيدية مكون سوري في ظل الحكومات السورية

صاغت الإيزيدية أسئلتها المعرفية بوعي فطري بحقيقة وجودها في محيط مختلف بوصف ذلك ضرورة اجتماعية في ظل الوحدة الوطنية، وانتابها شعور قوي بأن الانتظار على أعتاب السياسة الدولية من دون الانخراط فيها لن يجلب لها إلا مزيدًا من الانغلاق والعزلة الاجتماعيين، فانفتحت على القوى الخارجة من الحرب العالمية الأولى، وحاولت التواصل مع الأطراف الفاعلة كافة، والتفاعل مع الأحداث التي تجري في المنطقة بوصفها من المكونات السورية التي تملك خصوصية للبحث عن موطئ قدم، في حين إن مجموعة أخرى من الإيزيدية حاولت المحافظة على كيانها بوصفها مجموعة دينية صغيرة وسط تجاذبات سياسية، ودينية، وإسلامية، ومسيحية، ويهودية، من دون الدخول في مراهنات السياسة الدولية بوصفها لن تسعى إلى تأسيس دولة على أسس دينية، فوقفت موقف المتفرج على الأحداث الجارية، فضلًا على أنها لم تستشر مرجعياتها الدينية في العراق حول موقفها، وأُصطلح عليها (التيار المحافظ)، ومن ثم انقسم المجتمع الإيزيدي إلى (التيار المحافظ) و(التيار الليبرالي) المنفتح على الرؤى الجديدة، وتداخلت الأدوار في ما بينهما، بحيث لا يمكن التمييز إلا مع كل موقف على حدة منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، وهذا لا يعني أنهم لم يكونوا منقسمين من قبل، لكن بدا واضحًا هذا الانقسام في تلك المدة، قد نجد مثل هذا الموقف من الثورة السورية في 2011.

دعم بعض زعماء إيزيدية سورية الحكومة الوطنية، واجتمع بعضهم "مع الملك فيصل بن الشريف حسين

كممثلين للإيزيديين في دمشق، وأوضحوا له موقفهم المعادي للعثمانيين، وولائهم للحكم الجديد في سورية"[2]، وتحملوا مشقات السفر إلى دمشق لمقابلته ومساندته.

بدا الخلاف شديدًا بين التيارين السابقين في زمن الاستعمار الفرنسي الذي استخدم سياسة فرق تسد مع المكونات الدينية في سورية، وقسم المناطق السورية إلى دويلات دينية ومذهبية، حيث انضم بعض الناشطين الإيزيديين الذين كانوا ضمن صفوف الحزب الشيوعي إلى جانب المكونات السورية الأخرى لمحاربة سلطات الانتداب الفرنسي، "لم يكن موقف الإيزيديين موحدًا اتجاه الفرنسيين، البعض أيدهم، بينما رفض الآخرون الانتداب الفرنسي.. بعض الإيزيديين قاتلوا بنشاط ضد السلطات الفرنسية وعززوا المصالح القومية الكردية"[3]، والتجأ بعض الزعماء منهم إلى الجبال، فتشابكوا مع أشقائهم الإيزيديين الذين انضموا إلى القوات الفرنسية، ونشط آخرون ضمن صفوف الحركة الوطنية، حيث تواصل زعماء إيزيدية عفرين مع ثورة[4] ابراهيم هنانو في جبل الزاوية، وآل كيخيا، وتوطدت علاقاتهم مع الكتلة الوطنية. نشأت علاقة مميزة بين الإيزيدية وأحفاد بدرخان باشا، جلادت وكاميران [5]، من خلال جمعية خويبون الكردية. حمل الإيزيديون السلاح إلى جانب المكونات الدينية والإثنية الأخرى لمحاربة الاستعمار الفرنسي في الجزيرة السورية إلى جانب حاجو آغا، وكانت معركة "بياندور"[6] في محيط القامشلي من المعارك الشهيرة آنذاك، شارك فيها أفراد من الإيزيدية، وانتصروا على الحامية الفرنسية. وعندما حارب الإيزيديون حركة المريدين الإسلامية التي كانت تهدف إلى إعادة السلطة العثمانية في ثلاثينيات القرن العشرين في مناطق عفرين[7]، وطدت سلطات الانتداب الفرنسي علاقات قوية معهم، ومنحتهم ألقابًا على زعمائها، بل قدمت لهم امتيازات خاصة من الجامعة الأمريكية في بيروت لقبول أبناء الإيزيدية فيها بموافقة من عميد الجامعة [8]، وأصدرت جوازات سفر وبطاقات شخصية، "كان أول تسجيل رسمي للإيزيديين عام 1932 في عهد جميل آغا، وتم منحهم بطاقات شخصية تذكر فيها الديانة الإيزيدية، وتُضاف أحيانًا القومية، سوري، يزيدي، كردي"[9]، وسمحت لهم بفتح مدارس دينية (في قرية عرشقيبار وتل خاتون)، وسمحت للشباب الإيزيدي بالتطوع في الجيش الفرنسي لأول مرة، وتشكيل قوة إيزيدية مسلحة ملتحقة بفرقة (المليس) الفرنسية، إذ كانت أخبار الحرب العالمية تتردد صداها في العالم،

(2) محمد عبدو علي، الديانة الإيزيدية والإيزيديون في شمال غرب سورية، النسخة العربية، (عفرين: سورية، 2008). ص106.

(3) سيباستيان مايسل، «الإيزيديون السوريون في كرداغ والجزيرة»، نضال درويش، مدارات كرد، (2017).www.medaratkurd.com

(4) محمد عبدو علي، الديانة الإيزيدية والإيزيديون في شمال غرب سورية، ص 111.

(5) جلادت بدرخان (1893. 1951)، من مؤسسي (جمعية خويبون)، بعد خيبة أمل من الانتفاضات الكردية التي شارك فيها، يعد من رواد النهضة الثقافية الكردية، أصدر أول مجلة باللغة الكردية بالأحرف اللاتينية في دمشق باسم (هاوار)، ألف الأبجدية الكردية، وواضع قواعدها مع المستشرق الفرنسي روجيه ليسكو، كان على علاقة جيدة مع زعماء الإيزيديين في سورية، نشر أدعية الإيزيدية.

(6) قرية «بياندور» (1923) تقع القرية على تل صغير شرقي مدينة القامشلي، تبعد 17 كم عنها، كانت قاعدة للقوات الفرنسية، ارتكب قائد القاعدة (روكان) جرائم بحق أهالي المنطقة، فأرسل حاجو آغا أربعة رجال من الإيزيديين إلى تلك القاعدة للتخلص من «القائم مقام» الذي كان موجودًا فيها، ثم شنت عشيرة حاجو الكردية برفقة العشائر العربية هجومًا كبيرًا على قاعدة بياندور عام 1923، وحققوا فيها نصرًا كبيرًا، أوقعوا خسائر بشرية وعسكرية في الحامية الفرنسية.

(7) حركة المريدين (1930 – 1940): حركة دينية اجتماعية، حاربت القوات الفرنسية، سميت بـ«حركة المريدين» نسبة إلى مريدي الشيخ إبراهيم خليل الذي كان زعيمها، اعتمدت على الرابطة الدينية، تحوّلت في ما بعد إلى حركة مسلحة على شكلِ أخوة دينية ضد الاحتلال الفرنسي، طالبت بانتزاع ملكية الأراضي من الأغوات، وإعادة توزيعها على الفقراء من أتباعهم، ألغت المهور في الزواج، تواصلت مع الحركة الوطنية في سورية، وتعاهد الطرفان على محاربة الاحتلال الفرنسي في منطقة عفرين وطردهم من سورية، لكن بعد سلخ لواء إسكندون، قامت فرنسا بحملة عسكرية، استخدمت الطائرات الحربية في قصف مواقع المريدين في القرى الجبلية في عفرين.

(8) محمد عبدو علي، الديانة الإيزيدية والإيزيديون في شمال غرب سورية، ص 111.

(9) محمد عبدو علي، ص 116

لكن هذه الامتيازات لم تستمر طويلًا. فتلاقت الإرادة الإيزيدية مع أهداف الحركة الوطنية في محافظات سورية لمحاربة الاستعمار الفرنسي في منفعة متبادلة.

بعد استقلال سورية حجبت الامتيازات والصلاحيات الدينية والدنيوية كافة عن الإيزيديين، وظلوا مهمشين في ظل الحكومات الوطنية التي تنكرت لحقوقهم الدينية والثقافية، وسقطوا من أول دستور سوري عام 1950، ولم تتم مساواتهم بالمكونات الدينية الأخرى بحجة أنهم تعاملوا مع الاستعمار الفرنسي، لكن ماذا عن الذين حاربوا إلى جانب الثوار ضد القوات الفرنسية، واستشهدوا في المعارك؟ لم تثمر الاحتجاجات والقضايا المرفوعة في المحاكم السورية بنتيجة، فعانى الإيزيديون أكثر من أي مكون ديني آخر عدمَ اعتراف الحكومات السورية بحقوقهم بوصفهم إيزيديين، ودخلت البلاد في ليل طويل في مرحلة الوحدة مع مصر، مع بدء الاعتقالات على خلفية قومية/ أممية أكثر مما هي دينية.

تصاعدت نظرات العداء وعدم الرضا بتأثير ديني بين العلويين والإيزيديين، وارتقت أحيانًا إلى مشاجرة كلامية لا أكثر، معتبرين أن الإيزيدية تنتمي إلى الخليفة الأموي يزيد بن معاوية، ما شكّل سببًا للازدراء واضطهاد الإيزيديين في سورية بعد استلام حزب البعث السلطة، لكن اختفت هذه النظرة العدائية في أثناء أحداث الإخوان المسلمين عام 1982 بدعوى حماية الأقلية الدينية من الأكثرية السنية، ولم يسجل التاريخ أحداثًا كبيرة بينهما.

لعبت الحكومات المتعاقبة في سورية منذ استلام حزب البعث السلطة دورًا أساسيًا في خلق حالة التنافس والصراع بين مكونات المجتمع السوري، فاستحوذت العقلية العسكرية البراغماتية على السلطة السياسية مع الانقلابات المتتالية، ولجأت إلى استراتيجية مزدوجة في زمن سلطة البعث في التعامل مع المكونات الدينية والإثنية والعشائرية، تقوم على إظهار الرفض الكامل للحال الدينية والطائفية والمذهبية، بوصفها رمزًا من رموز التخلف وإعاقة التطور الاشتراكي، والنزوع القومي نحو علمانية الدولة المزيفة للاستئثار بالسلطة السياسية، وفي الوقت ذاته، التعاون غير المباشر مع المكونات نفسها على حدة، ومنح بعض الامتيازات لها، (مثال ذلك: صدر حكم الإعدام بعائلات عدة، تحولت إلى الإيزيدية في الحسكة عام 2007، فأعفى عنها رأس النظام بعد اعتقالها أربعة أشهر)، بغية الاستفادة منها بوصفها مكونًا تقليديًا يغذي ثنائية (الأكثرية مقابل الأقلية)، لزرع بذور الفتنة بين تلك المكونات، والتسويق لمسألة التنوع الديني، يدّعي أنه يحمي المكونات الدينية، كونه يجيد هذه اللعبة إجادة جيدة، ويضع المكونات الدينية في مواجهة بعضها بعضًا، لكن في حقيقة الأمر، إنه يحتمي بالمكونات السورية، ويبحث عن شرعية مكتسبة من المجتمع الدولي تخدم أيديولوجيته، والتخفي وراء رغبته التسلطية، تساعده في بقائه أكبر مدة ممكنة في الحكم، فهو "إن أظهر بعض الأحيان اهتمامًا بهذه المسألة، فليس لأنه يتعامل معها كقضية وطنية داخلية تحتاج إلى عناية خاصة، وإدارة واعية، وإنما كسلعة لها قيمة اعتبارية في سوق المضاربات السياسية"[10].

على الرغم من أن الخطاب الايديولوجي القومي لحزب البعث الذي انطوى على إقصاء مكونات الشعب السوري علنًا، والتواطؤ مع بعضها سرًا، خصوصًا في ما يتعلق بمسألة تطبيق الأعراف الدينية والمذهبية والعشائرية، ما أفسح المجال بتدخل رجال الأمن ووجهاء المنطقة لحل النزاعات البينية، لاغيًا سلطة القضاء وقوانين المحاكم، للتخفي وراء شعارات التعددية السياسية والتنوع الثقافي الخلاق، لم يرتق هذا الخطاب القومي إلى مستوى بناء

(10) حسان عباس، «إدارة التنوع في سورية»، معابر، لا عقيدة أسمى من الحقيقة، (2013) www.maaber.org.

دولة القانون والمواطنة على أسس التسامح والتعايش، بل انتهج النظام العقلية الاستخباراتية في إدارة شؤون الدولة، وباتت المكونات الدينية، إن لم تتصارع فيما بينها، لا تتبادل نظرات الود والمحبة بسبب الكراهية التي زرعتها تلك العقلية. ما يحدث الآن "في اتساع الشروخ بين المكونات المجتمعية المختلفة في المجتمع السوري لا يعود إلى تنوُّع هذه المكونات، وإنما إلى وجود إدارة سيئة للتنوُّع كانت تضغط بثقلها الأمني عليه لتحافظ على صورته التعايشية الجميلة غير آبهة بما تخلقه في داخله من احتقانات وأحقاد"[11].

فشل النظام السوري بركائزه الثلاث "الإسلام، العروبة، العقلية العسكرية أو الفصائل الجهادية المتعاقدة معها" في إدارة التنوع الديني والإثني والثقافي، وسعى من خلال الفروع الأمنية إلى تعطيل الاندماج الوطني، وتخويف مختلف المكونات، وبصورة خاصة الإيزيديين من محيطهم المسلم، ومع تخليه عن دوره في عملية الاندماج الوطني، أدى إلى اتساع فجوة الخلافات الدينية والإثنية بين المجتمع السوري، ظهرت ملامحها في الثورة السورية بصورة جلية، يرى ليث زيدان أن "النظم التي حكمت سورية المعاصرة لم تستطع تحويل هذا التنوع إلى إمكانات إيجابية ونقاط قوة في مفهوم المواطنة، وتسخير هذه التركيبة في إنتاج مفهوم المواطنة بالمعنى الحديث"[12].

قد يكون الحديث عن واقع المكون الإيزيدي في ظل الأوضاع الراهنة في سورية تمثلًا وجوديًا، يكّرس أزمة بنيوية تهدد وجود المجتمع وتماسكه، أثبتوا حيويتهم الوطنية والإنسانية، فكانوا في المقدمة في أثناء الحروب للدفاع عن الوطن السوري، هتفوا للثورة الجزائرية والفيتنامية، ولثورات التحرر الوطني كلها، قدموا الشهداء للمقاومة الفلسطينية واللبنانية إيمانًا منهم بأنها قضية عادلة، وبأن الحل الأمثل لتحرير وأي شعب أو مكون صغير وإبراز خصوصيته يكمن في الديمقراطية والمواطنة، و"انخرط بعض الأفراد من الإيزيدية في إطار الأحزاب الوطنيّة الناشطة"[13] للدفاع عن حقوق الإنسان، وكانت هذه المواقف نقطة التحوّل في الانفتاح الإيزيدي على قضايا السياسة الراهنة، هل يمكن حماية الإيزيدية تشريعيًا ومدنيًا، للقيام بأدوارها السياسية والاجتماعية داخل سورية؟

المشاركة في الثورة السورية

لا يعرف المجتمع السوري بشرائحه كافة إلا الجانب الدكتاتوري، والعقلية الاستخباراتية من الطغمة العسكرية الحاكمة في سورية، وعلى الرغم من ذلك، شارك الإيزيديون كافة المكونات السورية، أفرادًا ومجموعات شبابية، ضمن تنسيقيات الثورة السورية للخلاص من الاستبداد والاضطهاد باسم المجتمع السوري من دون أي إشارة أو تسمية تدل خصوصية الإيزيدية أو الطائفية أو المناطقية في حال التمرد على نظام الأسد، وعلى سلطة المرجعيات الدينية، لذلك كانت ثورة شعبية، وليست صراعًا طائفيًا، مذهبيًا مثلما كان النظام يردد في وسائل الإعلام. سارع الإيزيديون إلى الانضمام إلى التحالفات والهيئات الوطنية من خلال تمثيل

(11) المرجع السابق نفسه.

(12) ليث زيدان، «مفهوم المواطنة في النظم الديمقراطية». الحوار المتمدن، العدد 1932، (2007). http:www.ahewar.org

(13) سيباستيان مايسل، «الإيزيديون السوريون في كرداغ والجزيرة: بناء الهويّات في مجتمعٍ متغاير»، نضال درويش، مدارات كرد، (2017).-www.medarat kurd.com

ممثليهم في الأحزاب، وكان ممثلو حزب الاتحاد الوطني في هيئة التنسيق الوطني، وأيضًا ثمة ممثلون مستقلون في المجلس الوطني الكردي الذي بدوره تحالف مع الائتلاف الوطني السوري، وعلى الرغم من حساسية وضع المكون الإيزيدي بوصفهم سوريين وأكرادًا، وتهميش دورهم، انسحبوا من المجلس الوطني، وتعاونوا مع بعض أطياف المعارضة العلمانية، وأصروا على معارضة النظام السوري على خلفية الانتهاكات اللاإنسانية بحق المجتمع السوري، وفي الوقت نفسه لم تثق بالمعارضة التي حملت السلاح، وأجبرت الإيزيديين على اعتناق الإسلام أو التهجر من مناطقهم، وعلى الرغم كل من المآسي التي لحقت بهم، ما زالت تطالب بعلمانية لتأمين حقوقهم الدينية والاجتماعية والثقافية في إطار الدولة السورية، وعدم التمييز بين المواطنين على أساس الدين والعرق.

المرجعيات الدينية معظمها في سورية دعت إلى منح النظام فرصة للإصلاح في بداية الثورة، ما أوحى لبعض المعارضين بأنها داعمة للنظام، "انحازت معظم الأقليات الدينية الى نظام الاسد لعوامل عدة، أهمها سيطرة النظام على مؤسساتها الدينية، وخوف الاقليات من مصير مجهول إذا ما التحقت بالثورة في مواجهة نظام حديدي لايبدي أية رحمة ضد خصومه"[14]، إلا أن المرجعيات الدينية سرعان ما اتخذت مواقف متباينة بعد أن تحولت الثورة إلى صراع طائفي مع دخول السلاح والمال، وقاد بعض الشيوخ، الفصائل المسلحة من الخارج بعد أشهر عدة من انطلاقة الثورة، بينما أصرّ النظام على تكريس فكرة حماية الأقليات الدينية لضمان بقائه، وإخافة هؤلاء من مصير مجهول في ما إذا تحولت الثورة إلى ثورة دينية، مذهبية، وفي الوقت ذاته لم تُطَمْئن المعارضة مستقبل هذه المكونات الدينية، بل باتت تهددها، وتتهمها بالكفر مرة، وأخرى بالوقوف إلى جانب النظام، ما دامت تندد بأفعالها المنافية لأخلاقيات الثورة، على الرغم من أن مصطلح المكونات الدينية يبقى إشكاليًا في حالات عدة، خصوصًا في ما يتعلق ببعض الخصوصيات التي تطال هذه المكونات، والتي تضع الأطراف مقابل بعضها بوصفها بنيات دينية متضادة، في سياق خطابات الكراهية التي تولّد الحروب البينية المتشابكة، حيث توضع المكونات ضمن تصنيف كتل دينية قومية متراصة. ففي حالة الإيزيدية، فإن ثنائية (الأقلية والأكثرية) تولّد كراهية، وتأخذ المعنى باتجاه التوصيف الديني، وسيطرة الأكثرية على الأقلية، وموافقة الأقلية على شروط الأكثرية المجحفة، بين الإيزيدية بوصفها مكونًا سوريًا مغيّبًا من الدساتير السورية، ومهمّشًا من النظام، والتهم الموجهة إليها من الفصائل الجهادية المسلحة.

"إن الاحساس بالانتماء للحاضر في كل لحظة والدفاع عن المستقبل هو ما يحفز الاحساس بالوحدة الوطنية ويرسخة ويميزه.الوحدة الوطنية هي في صلب الفكر المدني بينما يحفزنا العقل الديني - الذي هو قاتل الوحدة الوطنية - للعودة في كل مرة باتجاه الماضي وبعنف"[15]، أيّد الإيزيديون الثورة السورية بوصفهم أفرادًا ينتمون إلى أحزاب كردية أو مجالس إيزيدية مستقلة، من دون العودة إلى مرجعياتهم الدينية بسبب التباعد الجغرافي، وضعف المرجعية الدينية في سورية، ومن ثم غاب صوت الإيزيدي بصيغة المفرد والجماعة في متاهة القرارات السياسية كصوت مستقل وفاعل بعد 11 آذار 2011، وسيطر صوت الحزب الذي ينتمي إليه الفرد، وبدأت المتاجرة باسم الإيزيدية، والتباكي عليهم باسم التعدد الديني، وهذا الانتماء المتعدد أيضًا كان سببًا في تشظي حال الإيزيدية ضمن سؤال حافل بالاتهام في أروقة الأحزاب الكردية، وغير مبرر طرحه في هذا الوقت: هل هم أكراد أم إيزيديون أم سوريون؟، بل المهم طرحه في هذه المرحلة هو تعزيز دور الإيزيدية في سورية ضمن الوحدة

(14) عبد الرحمن الحاج، «الدين والدولة في سورية بعد الحرب»، موقع مبادرة الاصلاح العربي،2017) Arab reform Initiative) ،

(15) كلوديس مطر، «في الوحدة الوطنية السورية... المعنى والواقع»، مجلة كنعان، (2012). www kanaan-quarterly-review-issue.

الوطنية، وإزالة الصورة النمطية من الأذهان، وترسيخ حقوق المكونات السورية كافة في الدستور.

ما زالت هوية الإيزيدية ملتبسة، مؤسَسَة بين الذاكرة الجريحة وتنميط الهوية السياسية الكردية، هل يبحث الإيزيديون عن هوية مغيبة لعقود من الزمن ضمن الهوية الوطنية الناجزة لتكريس حق المواطنة في سورية في تنوع هوياتي ديني، أم إنهم يسعون لاستنهاض هويتهم الخاصة بهم في اختلاف عن المكونات الدينية الأخرى في إطار الدولة السورية، والبحث عن ازدواجية الهوية أم ثلاثيتها (الإيزيدية، الكردية، الوطنية الجامعة/ السورية)؟. على الرغم من المآسي كلها، لم تتحول الهوية الإيزيدية في سورية إلى هوية قاتلة أو مقتولة إلا مع الكتائب الجهادية في الثورة السورية. وهذه الهوية تكتسب استمراريتها من ارتباطها بالفضاء الوطني، ومن مكونات المجتمع المتحولة، تتمكن المكونات أن تتموقع اجتماعيًا وثقافيًا في حيزين زمني ومكاني محددين، وتدفعه العلاقات التي ينسجها باتجاه الأحداث بوصفها لحظة تسعى المجتمعات الإنسانية أن تكون مستمرة ودائمة.

يعدّ الإيزيديون أنفسهم في سورية جزءًا من مكونات المجتمع السوري، ويشغلون حيزًا حقيقيًا في الفضاء الوطني، والمشاركة الفعلية في الحركة الوطنية والديمقراطية، وقد حددوا أسلوب عملهم بالنشاط السياسي الديمقراطي السلمي، ويرتبطون بأواصر الصداقة مع الديمقراطيين العلمانيين كافة في سورية على اختلاف انتماءاتهم الدينية والقومية، ولم ينجروا وراء أساليب العنف، بل رفضوا كل أشكال العنف والانتقام والحروب الأهلية بوصفهم لا يملكون قوة مسلحة، لا يرتبطون بقوى خارجية، لذلك يرون أنه لا مفر من الحل السياسي.

أحدث الإيزيديون تغيرًا عميقًا في تعاملهم مع المجتمع بسبب حالة التعالي على التهم الموجهة إليهم، فقد اندمجوا في المجتمع، خاصة إيزيديو عفرين، وتمكنوا من الدخول في مؤسسات الدولة الرسمية مثل الجيش والشرطة، مع الإقبال الشديد على التعليم العالي، يقول د. عمار قربي: "الإيزيديون من الناس الذين يحبون العلم والمعرفة بكل شغف، لكن الخوف من أتباع الديانات الأخرى بسبب عقيدتهم الدينية جعلهم بعيدين عن مجالات العلم لوقت طويل، وعندما أنشئت المدارس في قراهم أرسلوا أولادهم إلى تلك المدارس من الذكور والاناث، يُفرض على طلاب الإيزيدية أن يدرس التربية الاسلامية في المدارس الرسمية رغمًا عنهم"[16]، فضلًا على أنهم لا "يتميزون عن بقية فلاحي المنطقة من الأكراد المسلمين"[17]، إلا في المراسيم الدينية، بمثل الصيام ومراسيم دفن الميت، فضلًا على ذلك، فإن مفهومي القبيلة والعشيرة لم يكن لهما وجود، فهم سوريون، أكراد، إيزيديون، تمكنوا من المحافظة على هويتهم الدينية والقومية والوطنية، والتأكيد على ثقافة الانتماء إلى التاريخ والجغرافيا زمانًا ومكانًا، على الرغم من سيادة الثقافة العربية الاسلامية، وعلى الرغم من ذلك، لم ترغب الحكومات المتعاقبة في إقامة نظام سياسي على أساس الاعتراف الكامل بحقوق الإيزيدية الدينية والثقافية.

تشير الدلائل إلى عدم رضا رجال الدين الإيزيدي عن النظام من دون المواجهة المباشرة، تعاطف بعض منهم مع الثورة، إلا أن تصاعد دور الفصائل الجهادية المسلحة، واقتحام مناطقهم، وصعود تنظيم داعش وجرائمها في شنكال أفزع المكون الإيزيدي في سورية، وأثار مخاوفهم من مخططات تستهدف وجودهم الديني والثقافي، لذلك تركزت معارضتهم ضمن القوى العلمانية التي تنادي بالحل السياسي، بوصفهم لا يسعون إلى السلطة، ولا إلى بسط نفوذهم إلا في إطار المحافظة على خصوصيتهم الدينية والثقافية، فلجأ معظمهم إلى خارج الوطن.

(16) عمار قربي، الديانة الإيزيدية، (المنظمة الوطنية لحقوق الانسان، ألكتروني، د.ت)، ص 22.

(17) روجيه ليسكو، اليزيدية في سورية وجبل سنجار، أحمد حسن (مترجمًا)، (دمشق: دار المدى، 2007)، ص 231 .

سلّط تقرير لجنة التحقيق الدولية المعنية بالجمهورية العربية السورية الضوء على "الانتهاكات المرتكبة ضد الإيزيديين داخل الاراضي السورية"[18]، ارتكبت فصائل المعارضة المسلحة عددًا من الانتهاكات بحق الإيزيديين في سورية ترتفع إلى جرائم إنسانية، وتشهد قرى إيزيدية عمليات تغيير ديمغرافي في التركيبة السكانية، خاصة في منطقة عفرين. وفرضت عليهم التوجه إلى المساجد للصلاة، وأجبرت سكانها الإيزيديين على حضور الدروس الدينية، كما صرح باولو بينيرو رئيس اللجنة: إن الابادة الجماعية حدثت، وما زالت مستمرة، لقد عرضت داعش كل امرأة وطفل ورجل إيزيديين من الذين اختطفتهم إلى أبشع الانتهاكات.

غياب الإيزيدية عن الدستور السوري

الدستور السوري يحدد القواعد الأساس لشكل الدولة، وينظم السلطات العامة، والعلاقة بين السلطات والمواطنين، والحقوق الأسياسية للأفراد والمكونات العرقية والدينية، وضمان حمايتها، كيف تم التعامل مع المكونات الدينية، وهل كان الدستور عقدًا اجتماعيًا حقيقيًا أم محاصصة طائفية مذهبية مناطقية في مراحل سابقة؟.

يمثل الدين في الدستور السوري إشكالية تتصارع حولها الأطراف المتصارعة، بوصفه نتاج مرحلة سابقة، يؤسس لمرحلة لاحقة، فهو دستور وطني للبلاد يؤمن الحماية لمكونات المجتمع كافة، لكنه لم يرتق إلى مستوى الدساتير التي يطمح فيها المواطن أن تكون كرامته وحريته مصونة بمواد الدستور. فقد أضيفت إلى الدستور صفة القومية بعد الوحدة مع مصر، والتي عززت سياسات الأنظمة المتتابعة على الحكم، فالدستور يثبت صراحة عروبة الدولة وإسلاميتها، وتكرس أجهزة الدولة هذه الصفة بالقوة، ويؤكد إسلامية رئيس الدولة، ومن ثم يُستبعد من الرئاسة كل من هو غير مسلم، ثم "إن سوريا كانت بعيدة عن مفهوم الدولة الوطنية والمواطنة، ولم تكن فيها قيادة سياسية قادرة على الاستمرار في ظل الحكومات المتعاقبة إلى الآن"[19]، إلا أن الإشكالية ليست في الدستور بقدر ما هي في إساءة في تطبيق الدستور.

ولم تسعَ الحكومة السورية لخلق أطر قانونية تحمي المكونات الأكثر ضعفًا، فتركت الإيزيديين لرحمة العرف الاجتماعي والديني الذي استمر بإقصائهم عن الحياة العامة، وبمبررات أمنية وتسلطية حرموا من ممارسة الشعائر الدينية الخاصة بهم، من هنا ندرك مساحة التجاهل للإيزيدية دستوريًا. وقد جاء في الدستور السوري أن "الأحوال الشخصية للطوائف الدينية مصونة ومرعية. يكفل الدستور حرية القيام بجميع الشعائر الدينية على أن لا يخل ذلك بالنظام العام. وفي المادة التاسعة، يكفل الدستور حماية التنوع الثقافي للمجتمع السوري بجميع مكوناته وتعدد روافده، باعتباره تراثًا وطنيًا يعزز الوحدة الوطنية في إطار وحدة أراضي الجمهورية العربية السورية"[20]، رفض المشرع السوري الاعتراف بمطالب الإيزيديين المتمثلة بممارسة شعائرهم الدينية، فقد كانت النظرة إليهم أنهم مسلمون.

(18) تقرير لجنة الأمم المتحدة للتحقيق المعنية بسوريا، «داعش ترتكب الابادة الجماعية ضد الإيزيديين»، (الأمم المتحدة، 2016)

(19) نجاتي ألكان، «فرق تسد.. تأسيس الدولة العلوية بعد الحرب العالمية الأولى»، أحمد فارو (مترجمًا)، مجلة فكر وفن، النشرة الألكترونية، (معهد غوته، 2013)

(20) الدستور السوري لعام 2012، «المادة الثالثة، الفقرة الثالثة والرابعة، والمادة التاسعة»، (2012)، ص4.

لا توجد أي إشارة مضمرة أو صريحة إلى الإيزيدية في الدساتير السورية، والسلطات السورية لم تهتم بالمكونات الدينية كافة في سورية على نحو متساو، وخاصة تلك المكونات الصغيرة (الإيزيدية)، هل الإشكالية تكمن في المشرّع السوري الذي اعتبر الإيزيدية جماعة مرتدة عن الإسلام، أم في السلطات السياسية السورية، أم في التشريع والفقه الاسلاميين اللذين يستمد الدستور منهما شرعيته؟، الدستور لا يعترف إلا بالأديان السماوية الثلاثة؛ اليهودية والمسيحية والإسلام، وكل مكون خارج دائرة الأديان السماوية في سورية، ينطبق عليه التشريع الاسلامي حكمًا، من ثم، فالإيزيديون مسلمون بالقوة في الدستور السوري، وإيزيديون بالوجود الفعلي، عمليًا، هذا يعني إقصاء كل من ليس عربيًا وإسلاميًا من الفضاء الوطني، ومحاولة إجباره أن يكون مسلمًا وعربيًا، هل يمكن للدولة أن تجبر الإيزيديين على ألا يكونوا إيزيديين بل مسلمين؟ على الرغم من أن سورية تعد نموذجًا مصغرًا في التنوع الديني والإثني، ومن ثم، كان من المستحيل تقدير تعدادهم في سورية، فالإحصاءات التي قام بها الباحثون معظمها لم تكن دقيقة، ولن تكون كذلك، باعتبارهم مسلمين بالقوة في مناحي الحياة كافة، يتحول الإيزيدي آليًا في دائرة النفوس إلى مسلم في أثناء الزواج، وفي المدارس والقضاء والمحاكم، لدرجة أن النزاعات حول أحقية ملكية العقارات والأراضي كانت لصالح المسلم دائمًا، وهذا يعني تجريدهم من أملاكهم بموجب الدستور في حال كان الطرف الآخر مسلمًا، فالقضاء السوري يمنح المسلم حق ملكية الأرض أو العقار باعتبار الآخر إيزيديًا لا يحق له أن يمتلك أرضًا حتى إن ورثها عن أجداده، جرت كثير مثل هذه الأحداث في العائلة الإيزيدية الواحدة، بمجرد أن يعلن أحد الطرفين إسلامه، يربح القضية، وهذا ما شجع العائلات أو أفراد من الإيزيديين على اعتناق الإسلام لسبب اقتصادي بحت.

اختفت ملامح الإيزيدية من المجتمع السوري من دون جدل منذ وصول البعث إلى الحكم، واقتصرت على الصيام سرًا ومراسيم الدفن، من دون إقامة الشعائر الدينية والثقافية والاجتماعية، "الإيزيديون في سورية لا يملكون أي حق لا من الناحية السياسية ولا من الناحية الدينية، فمن الناحية الدينية يخضعون للمحاكم الشرعية الإسلامية عنوة دون إرادتهم، ولا يملكون محاكم شرعية أو دينية خاصة بهم، كما لا يسمح لهم أن يتبعوا المحاكم المدنية في قضاياهم الدينية، لذلك فإنهم في قضايا الزواج والطلاق وما يتعلق بذلك، يخضعون للمحاكم الشرعية الإسلامية".[21] وتعاملت الحكومة مع الإيزيديين كتعاملها مع المسلمين، فتعليم أبناء هذه الطائفة في المدارس يقوم على تعلم الديانة الإسلامية، كما أن شهادة الإيزيدي في المحاكم السورية، إن وافق القاضي على شهادته، تكون على طريقة شهادة المسلمين، في عام 1993 أصدر القاضي الشرعي الأول في محافظة الحسكة قرار منع شهادة الإيزيديين أمام المحاكم باعتبارهم لا يتبعون دينًا سماويًا.

طالبت الإيزيدية بحقوقها الدينية والثقافية وممارسة شعائرها في إطار الدولة السورية، وما يضمن لها الدستور السوري، ولم تطالب بالكيانات السياسية كنظام سياسي ديني، فالخصوصية الدينية والثقافية والاجتماعية للإيزيدية لا تشكل هاجس الخوف لدى الآخر المختلف، لكن في حال الفوضى التي تعم البلاد، فهي الفئة/ المكون الأكثر استهدافًا، لا الدولة السورية تحميهم، ولا القوانين الدولية تنصفهم. لذلك يلجؤون إلى أبناء دينهم من الإيزيديين في المناطق الجديدة كمناطق آمنة، مثل ما حدث مع بعض العائلات الإيزيدية التي لجأت إلى إيزيدي الحسكة وقراها قبل أكثر من 100 سنة تقريبًا، للاحتماء بهم، والمحافظة على خصوصياتهم الدينية والثقافية.

(21) فرمان غريبو، «الإيزيديون في سورية»، موقع الديمقراطي، (2013).

فضاءات الهوية، دينيًا، قوميًا، وطنيًا

ثمة جعجعة بلا طحن تثير إشكالية التمايز بين مفهوم (الدين والقومية) في الإيزيدية من جهة، ومفهوم (الإيزيديون الكرد) أو (الكرد الإيزيديون) من جهة أخرى، على الرغم من أن المفهومين يتعارضان أكثر مما يتوافقان، ففي الحالتين، هي محاولة لإلغاء صفة الكردية عن الإيزيدية، أو التشكيك في كردية الإيزيدية. يدرك الجميع أن الإيزيدية كانت الديانة الأصلية للكرد (الكرمانج) قبل دخولهم في الإسلام، يقول باسيلي "تعتبر الديانة الإيزيدية، الديانة التي يعتنقها معظم الكرد قبل دخولهم الإسلام»[22]، ومن ثم، فالكردية/ الكرمانجية بنية مضمرة، ملتصقة كالظل بالإيزيدية، كون النصوص الدينية المقدسة كتبت باللغة الكردية "كتب مصحف رش باللغة الكرمانجية الهكارية"[23]. ولا مبرر للقول (الكرد الإيزيديون)، و(الإيزيدية دين وقومية)، كان طبيعيًا ألا تُثار هكذا إشكالية، بوصفها تزعزع مفهوم المواطنة والديمقراطية وإثارة الفتنة بين الأكراد أنفسهم. وكان من المفترض أن الشكوك تُثار حول هوية الكرد المسلمين الدينية، ويجب أن يثبت الكردي المسلم انتسابه إلى الكردية. الهوية الكردية على الرغم من تحولاتها المستمرة، هوية غير مستقرة، إسلامية بزخارف عربية، فالمراسيم الدينية والدنيوية معظمها تُؤدى بالعربية، لغة القرآن. النتيجة، تخلى الكرد عن ديانتهم وعن لغتهم لصالح العربية الإسلامية منذ دخولهم في الإسلام، ويثيرون إشكالية مع الإيزيدية حول الهوية الكردية. لذلك بطبيعة الحال، فالهوية الكردية، هوية إسلامية بامتياز، تتشابك مع الهوية العربية الإسلامية في سورية تحديدًا، وتتعالق بخيوط كادت أن تنقطع على المستوى الشعبي مع الإيزيدية في الحديث الشفهي فقط.

بناءً على ذلك، يتحدد الوعي بالإيزيدية بوصفه وعيًا بأصل الكرد/ الكرمانج، يقود هذا الوعي إلى تصور عرقي للهوية لا يتأتى عن تصور عنصرية ما، بل التعبير عن الذات الإيزيدية المهمشة، في المقابل، يتحدد وعي الكرد المسلمين بالفرع (الأصل إيزيدية، الفرع كرد مسلمون)، ولا يمكن للأصل أن يثبت هويته أمام الفرع الذي يستمد هويته وخصوصيته من الأصل. هناك فرق واضح بين الإيزيدية والكردية قوميةً، نادرًا ما يتم التمايز بين الأمور الدينية والقومية عند الإيزيدية في سورية، ولم تفرق الإيزيدية بين الدين الإيزيدي والقومية الكردية إلا في حالات خاصة بمثل ممارسة الشعائر الدينية والزواج، يتشابه الإيزيدي مع الكردي المسلم والعربي والمسيحي الذي يجاوره في المنطقة بالنواحي كافة، من مثل ثقافة اللباس والأكل والشرب والعادات والتقاليد، في حين يختلف تمامًا عن نظيره الإيزيدي في البلدان المجاورة له، من هنا يمكن القول إن من يدّعي أن الإيزيدية لغة وقومية، يجافي الحقيقة التاريخية، بالتأكيد لغة الإيزيدية كرمانجية، إحدى لهجات الكردية. ومن السذاجة نفي الهوية الكردية عن الإيزيدية، بل كان مشروع نفيها عن المسلمين الكرد الذي فقدوا البوصلة منذ دخولهم الاسلام، دينيًا وقوميًا. حقيقة الأمر إن الشعور الوطني والقومي عند إيزيديي سورية، وخاصة عفرين، يتساوى إن لم يكن يتجاوز الشعور الديني، إذا تجاوزنا عشر السنوات الاخيرة من عمر الثورة التي كانت لها تداعيات تاريخية.

لم يحاول الإيزيديون في يوم من الأيام تشكيل حزب/ تنظيم سياسي خاص بهم للدفاع عن حقوقهم الدينية والاجتماعية إلا في إطار الدستور السوري، والدستور لا يسمح بتشكيل أحزاب سياسية ذات صبغة دينية أو قومية أو مناطقية، لذلك لم ينتجوا مجتمعًا سياسيًا، ولا نخبًا سياسية فاعلة، لكن الأحزاب الكردية سعت

(22) باسيلي نيكيتين، الكرد، نوري طالباني (مترجمًا)، ط3، (السليمانية، كردستان العراق، د.ن، 2006)، ص373.

(23) عبد الناصر حسو، اليزيدية وفلسفة الدائرة، (دمشق: دار التكوين، 2008)، ص 53.

للاستحواذ على أوضاعهم، والتدخل في شؤونهم السياسية من خلال ممثلين إيزيديين ينتمون إلى هذه الأحزاب لأجنداتهم الحزبية، والذين يتاجرون بحقوقهم ومآسيهم، لذلك لا يثق الإيزيديون المتدينون بأي طرف، سواء كانوا أحزبًا كردية أم شيوعية أم حتى بعثية، على الرغم من أن أفرادها يمارسون السياسة ضمن الأحزاب السرية والعلنية، وليس لهم موقف سلبي من أي جهة حزبية أو نظام سياسي، ولا يتحَدّون المكونات الدينية الأخرى، بقدر ما يحاولون المحافظة على كينونة الدين والتكيف مع المحيط.

لم يكونوا طرفًا في الصراعات، ولم تحدث أية توترات أو نزاعات مع السلطات السورية على خلفية الدين، وعلى الرغم من ذلك لم يتخلصوا من التهم والنظرة الدونية إليهم، ومنذ ظهور الدولة السورية الحديثة كانوا يتخذون موقف الحياد في جميع الصراعات البينية والأحداث السياسية والانقلابات العسكرية التي لا تلامس دينهم بعد أن تم إقصاؤهم عن الدستور، مدركين أنهم مكون صغير لن يكون لهم تأثير كبير في الشارع السوري إلا من خلال الاحتجاجات والوقفات التضامنية، وعلى الرغم من ذلك عانت الإيزيدية سياسة التهميش والإقصاء، إلا أن حزب العمال الكردستاني استقطب عددًا منهم أكثر من الأحزاب الكردية الأخرى في ثمانينيات القرن العشرين، واعتبر هذا الحزب أن الإيزيدية أصل الكرد، يدينون بالزرادشتية، دين الكرد القديم، وما زالوا يصرون على ذلك مع بعض القوميين الأكراد، وهذا الطرح يعد أكثر خطرًا من الإبادات الجماعية التي واجهت الإيزيدية على مر التاريخ. علاوة على ذلك يعدون أنفسهم مواطنين سوريين بخصوصية كردية إيزيدية، يقول د. بير ممو عثمان: "لا نريد أن نخوض صراعًا مع أي اتجاه سياسي، لأننا لم ولن نرفع لواء سياسيًا، وهذا ليس في خدمة الديانة الإيزيدية، نرفض أن يتم استغلال الدين من قبل جهات سياسية كوسيلة لتحقيق أغراض معينة، إن هذا الاستغلال يعمل على فصل الإنسان داخليًا وخارجيًا، داخليًا مع نفسه، يعني الانفرادية، وخارجيًا مع المحيط الإنساني»[24]، يريدون العيش في سلام مع الآخرين، ولا يشكلون أي خطر على أي مكون آخر.

تعالت المكونات الدينية والعرقية والاجتماعية معظمها عن خلافاتها البينية إلى حد كبير مع انطلاقة الثورة السورية، فتضامنت معًا ضد النظام المستبد، و"لم يتوطد مفهوم المواطنة في عقل ووجدان المواطن العربي، ولم يستوعب بأن إنشاء الدولة الوطنية أصبحت الرابطة الوطنية، وما يترتب عليها من علاقات، هي الأقوى بين أفراد الوطن الواحد، ولم تعد مفاهيم الأكثرية والأقلية، ومصطلح التسامح مع أي مكون وطني مناسبًا أو مقبولًا في الدولة الحديثة ، فالمواطنة ليست منة الأكثرية على الأقلية، وعليه فإن الهويات الفرعية الدينية والعرقية والمذهبية والقبلية تصبح هويات روحية واجتماعية وثقافية داعمة للهوية الوطنية الجامعة، فلا تناقض ولا تعارض ولا تضاد بينها جميعًا وبين الهوية الوطنية، فهم الأدوار والوظائف للهويات الفرعية واحترامها وتنميتها، وتصفيف تراتبيتها ضمن الهوية الوطنية، كفيلٌ بأن لا تطغى وتتحول أي هوية فرعية إلى هوية قاتلة، بل على العكس تصبح مصدرًا للإثراء الاجتماعي والثقافي واللغوي المعزز لقوة الوطن ومنعته ورفعته وبقاؤه. وهذا بلا شك يتطلب عملًا دؤوبًا ومتواصلًا من قبل النخب الفكرية والسياسية، بقيادة مؤسسات الدولة، لابتداع الأفكار والسبل العمليَّة لدمج الهويات الفرعية وتسطيحها تحت عباءة الهوية الوطنية مع احتفاظ كل هوية فرعية بخصوصيتها وتطلعاتها وتمايزها المشروع الذي يكفله لها الدستور"[25].

تعرضت علاقة الدين مع الدولة للتغيير في الوقت الراهن، وبدا التمايز بين المكونات السورية على أسس

(24) ممو فرحان، «الديانة الإيزيدية ومستقبل الإيزيديين»، مجلة روز، ع: 6، (ألمانيا، د.ن، 1998)، ص100،

(25) ماجد الصمادي، «الهوية الوطنية والهويات الفرعية القاتلة»، (د.م: كتاب عمون، 2020) .www.ammonnews.net

دينية ومذهبية وعرقية، ومن ثم، ظهر تفاضل الانتماء ما بين الهوية الخاصة أو العامة مع غياب مشروع وطني يحمي المكونات من مخاوف الصهر والإقصاء "الهويات الفرعية تذكيها وتبرزها الصراعات، ولا يخفى على أحد أن الدولة الحديثة معنيةٌ في ضبط ايقاع نمو الهويات الفرعية وهرمية تراتبيتها، فالدولة الحكيمة تعظم الاستفادة من النسج والتماسك الافقي لتعزيز الهوية الوطنية، فمع انشاء الدولة الوطنية في الدول العربية، أُستحدثت علاقة جديدة ارضيتها المواطنة والدستور والقوانين الناظمة لشؤون الوطن المستحدث. وهذا كله غريب على الثقافة العربية وارثها التاريخي المعتاد على سطوة اغلبية الدين او العرق او المذهب او القبيلة او الجنس، لذلك كانت الهوية الوطنية ضحية أي ضعفٍ او اضعاف لمؤسسات الدولة الوطنية وبروز الهويات القاتلة المتقاتلة على ارضيات مختلفة، منها التناقض المفترض بين الهوية الوطنية والهويات الفرعية - كالهوية الدينية"[26].

لا تسعى الإيزيدية إلى السلطة، ولا إلى الغزو وبسط نفوذها على المناطق واسعة، ولا إلى إكراه مجموعات بشرية على اعتناق الديانة الإيزيدية، و"ليس لمعتنقي هذه الديانة طموح الاحتلال من خلال الغزوات أو الفتوحات، وإنما هي دائما كانت ولازالت في حالة الدفاع عن ذاتها وكينونتها، وليس في أجندتها الهجوم على الاخر، بل تتقبل الاخر كما هو. من هذا المنطلق ليس في مقدورها تأسيس خطاب يدعو الى العنف والكراهية أو الترويج لهما"[27]. ومن ثم، تقوم الديانة الإيزيدية على مبادئ التسامح والتعايش واحترام الآخر ونبذ العنف والإكراه بين مكونات الشعب السوري جميعها ضمن القوانين السورية.

حافظت الإيزيدية على توازن جيد في علاقاتها مع مختلف المكونات في سورية، باعتبارهم أخوة في التعايش والمواطنة والإنسانية، توطدت صداقة قوية بينها وبين العشائر العربية في سورية على مدى التاريخ. استقبل الإيزيديون الأرمن عندما هاجمتهم قوات الدولة العثمانية الآيلة للسقوط إبان المجزرة الشهيرة في بدايات الحرب العالمية الأولى، "ساندوا الأرمن في محنتهم، وهناك إشارات كثيرة في كتب الرحالة تشير إلى تلك المساعدة التي قدمها الإيزيديون للأرمن بتوفير المأوى والغذاء وإسكانهم في قراهم، ورفضوا دعوات الحكومة المتكررة لتسليمهم، يؤكد الرحالة بدج بأن الإيزيديون تحدوا السلطات العثمانية بإيوائهم اللاجئين الأرمن ورفضوا تسليمهم"[28].

الخاتمة

كان من المفترض أن تكون الهويات الفرعية الدينية هويات متنحية بمقاييس العصر لصالح هوية المواطنة، وتثبيت حقوق المكونات الدينية والإثنية كافة في الدستور السوري، والاعتراف بوجودهم قانونيًا، وذلك كله مدعاة لتقوية اللحمة الوطنية. لكن الدولة السورية لم تستطع تجاوزها، بل انتهجت أسلوب الإقصاء والتهميش، وحاولت إعاقة تكريس الهويات الوطنية، ولم تعترف بالمكونات شريكة في الوطن، واعتبرت أن الإيزيدية من مخلفات شعوب لجأت إلى سورية، وتكرّم عليها المجتمع العربي الاسلامي، فحماها من الانقراض والمحو، وعليها أن تعترف بجميل الثقافة العربية الإسلامية وتسامحها. على الرغم من أن الإيزيدية تبحث عن نقاط الالتقاء

(26) السابق نفسه.

(27) حسو هورامي، الفرمان الأخير ط1، (لبنان/ كندا: مؤسسة مسارات للتنمية الثقافية والاعلامية، 2015)، ص 68.

(28) أرشد حمد محو، الإيزيديون في كتب الرحالة البريطانيين، ط1، (دهوك/ كردستان العراق: مطبعة خاني، 2012)، ص 71,

والتلاقي مع المكونات السورية المختلفة في ظل هيمنة الخطاب الأيديولوجي الراديكالي، فالقوة الحقيقية التي تجمع بين غالبية الشعب السوري هي قوة دولة المواطنة.

الإيزيدية مهددة بالانقراض وفق الدستور السوري، ومتهمة من قبل الإسلام السياسي بالكفر والزندقة، ومحرفة من قبل القوميين الأكراد من الزرادشتية، فكان لا بد أن تربط مصيرها بالمواطنة، حيث يفترض أن تتبنى الثورة السورية مفهوم المواطنة واقعًا وحقيقة، يعيش في ظلها الناس جميعهم وفق أسس ومعايير الحقوق والواجبات، والأصل في التمييز والإقصاء هو الكفاءة والالتزام بالحق والواجب.

وهل كان من الحصافة الحديث عن تموضع الإيزيدية ضمن تفاعلات الثورة وتجاذبات النظام؟. أما آن للمجتمع السوري عامة، والكردي المسلم خاصة، الكف عن توجيه التهمات المسيئة، والتخلص من تطرفهم الديني الذي يهيمن على سلوكياتهم كي يتعاملوا مع الإيزيدية بوصفها مكونًا أصيلًا في المجتمع، والعيش معًا بسلام؟.

المراجع

1. حسو. عبد الناصر، اليزيدية وفلسفة الدائرة، (دمشق: دار التكوين، 2008).

2. علي. محمد عبدو، الديانة الإيزيدية والإيزيديون في شمال غرب سورية النسخة العربية، (عفرين/ سورية: د.ن، 2008).

3. قربي، عمار، الديانة الإيزيدية، كتاب ألكتروني، (د.م: المنظمة الوطنية لحقوق الإنسان، د.ت).

4. ليسكو. روجيه، اليزيدية في سورية وجبل سنجار، أحمد حسن (مترجمًا)، (دمشق: دار المدى، 2007).

5. محو. أرشد حمد، الإيزيديون في كتب الرحالة البريطانيين، ط1، (دهوك/ كردستان العراق: مطبعة خاني، 2012).

6. نيكيتين. باسيلي، الكرد، نوري طالباني (مترجمًا)، ط3، (السليمانية/ كردستان العراق، د.ن، 2006).

7. هورامي، حسو، الفرمان الأخير ط1، (لبنان/ كندا: مؤسسة مسارات للتنمية الثقافية والاعلامية، 2015).